القلب المســـكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أقبل عليَّ صاحبي الأديب وقال : أنظر هذه هي ، وقد حلت بهذا البلد وما لي عهدٌ بها منذ سنة . ومدَّ إليَّ يده فنظرتُ إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهاً وجسما ، تتأوَّدُ في غلالة من اللاَّذ (١)

وكأن شعاعَ الضُّحى في وجهها ، وكأنها القمرُ طالعاً من غيمة ، ويكاد صدرها يتنهد وهي صورة ، وتبدو هيئةُ فمها كأنها وعدٌ بقبلة ، وفي عينيها نظرةٌ كالسكوت بعد الكلمة التي قيلت همساً بينها وبين محبها ...

فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصوِّر وابليس . فمن هي ؟

قال : سَلْها ، أما تراها تكاد تَثِبُ من الورقة ؟ إنها إلاَّ تخبرك بشيء أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً ، وثغراً وجيداً ، والذي بعد ذلك ...

قلت : ويحك ، لقد شعرتَ بعدي ، إن هذا شعر موزون

وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً

وثغراً وجيدا والذي بعد ذلكا ...

قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً ؛ ألستَ تراه ناظماً من فنونها على الرسم شعرا معجزا كل شاعر ؟

قلت : وهذا أيضاً شعر موزون :

ألستَ تراه ناظما من فنونها

على الرسم شعراً معجزا كل شاعر

قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها يريك لهذا الجسم روحاً رشيقة ، تلين كلين الجسم بل هي أرشق .

قلت : وهذا أيضاً ، والقافيةُ التي بعد هذا البيت : وبها شقوا ....

فضحك صاحبنا وقال : حرِّك الصورة في يدك ، فانها ستراها وما تشك أنها ترقص

قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهذا ليس شعرا ولا يجيء منه وزن ....

وتضاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل في الرسم كأنه يضحك ....

* * *

قال صاحبُ القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إنهما من العيون التي تفتن الرجل وتسحره متى نظرتْ اليه ، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه . إن في شعاعهما قُدرةً على وضع النور في القلب السعيد ، كما أن في سوادهما القدرة على وضع الظلمة في القلب المهجور ...

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذي تعجز كلُّ حدائق الأرض أن تُخرج وردةً حمراء تشبهه

وانظر إلى هذا الجيد تحته ذلك الصدر العاري ، فوقه ذلك الوجهُ المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روحُ الشمس ، وأما الجيد ففيه روحُ النجم ، وأما الصدر ففيه روحُ القمر الضاحي

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جيبها إلى أسفل نهديها ، تلك منطقةُ القُبُلات في جغرافيا هذا الجمال ...

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الثديين الناهدين ؛ إنه المرضُ الذي اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للاعلان عن ثمار البستان ...

انظر إلى النهدين لِمَ بَرَزَا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدَّيان الصدرَ الآخر .... ؟

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعةً بين فتنتين متكبِّرتين .... ؟

انظر اليها كلِّها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ، وهذا الاغراء ؛ ألا ترى الكنزَ الذي يحول القلب إلى لص .... ؟

هذه مخلوقة سرقتين ، إحداهما من الله في العالم ، والأخرى

(١) اللاذ الحرير الصيني الرقيق ، والغلالة مثل القميص الذي تحت الثياب

من حبي أنا فى نفسى أنا ، فكلمة « جميلة » التى تصف المرأة التامة ، لا تصفها هى إلا ببعض الوصف ؛ ورسمها هذا الذى تراه إنما هو حدود لتلك الروح التى فيها قوة التسلط ، وهيهات يُظهر من تلك الروح إلا ما يُظهر من الجمرة المشتعلة رسم هذه الجمرة فى ورقة

أشهد ما نظرت مرة إلى هـذا الرسم ثم نظرت اليها إلا وجدت الفرق بينها فى نفسها وبينها فى الصورة ، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة ...

* * *

قلت : اللهمَّ غفراً ؛ ثم ماذا يا صديقى المجنون ؟

فأطرق الأديب مهموماً ، وكانت أفكاره تنفجر فى دماغه إنفجارا هنا وانفجارا هناك ؛ ثم رفع إلىَّ رأسه وقال :

هذه الثانية قد حبست أفكارى كلها فى فكرة واحدة منها هى ؛ وأغلقت أبواب نفسى ومنافذها إلى الدنيا ، وألهبت فى دمى جمرة من جهنم فيها عذاب الاحراق وليس فيها الاحراق نفسه كيلا ينتهى منها العذاب

وبيننا حبٌّ بغير طريقة الحب ، فان طبيعتى الروحانيـةَ الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشرية الناقصـة ، فأنا أمازجها بروحى فأتألم لها ، وأجتنبها بجسمى فأتألم بها

حبٌّ عقيم مهما يكن من شىء فيـه لا يكن فيه شىءٌ من الواقع

حب عجيب لا تنتفى منه آلامه ولا تكون فيه لذاته

حب معقد لا يزال يلقى المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض الحل الذى لا تحل المسألة إلا به

حب أحمق بعشق المرأة المبذولة للناس ، ولا يراها لنفسه إلا قديسة لا مطمع فيها

حب أبله لا يزال فى حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على شفتيه قبلةٌ من الفم الذى فى الصورة

حب مجنون كالذى يرى الحسناءَ أمام مرآتها فيقول لها : اذهبى أنت وستبقى لى هذه التى فى المرآة ...

* * *

قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا يا صاحبى المسكين ؟

قال : ثم هذه التى أحبها هى التى لا أريد الاستمتاع بها ، ولا أُطيقه ولا أجد فى طبيعتى جرأة عليه ، فكأنها الذهب وكأنى الفقير الذى لا يريد أن يكون لصاً . يقول له شيطانُ المال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان الحاجـة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة

إن عذاب هذا بشيطانين لا بشيطان واحد ، غير أن لذته فى انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد

* * *

قلت : اللهم عفوا ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟

فأطرق مليًّا كالذى ينظر فى أمر قد حيَّره لا يتوجه له فى أمره وجه ، ثم تنهد وقال : يا طول علة قلبى . من أين أجىء لأحلامى بغير ما تجىء الأحلامُ به ، وإنمـا هى تحت النوم ووراء العقل وفوق الارادة ؟ لقـد بلغ بى هواها أن كل كلمة من كلام الحب فى كتاب أو رواية أو شعر أو حديث — أراها موجّهة إلى أنا

ثم قال : انطلقْ بنا فتراها حتى تعلم منها علما فهى فى ذلك المسرح ، هى فى ذلك الشر ، هى فى تلك الظلمات ، هى كاللؤلؤة لا تتربىّ لؤلؤةً إلا فى أعماق بحر

* * *

وذهبنا الى مسرح يقوم فى حديقة غنَّاءَ مترامية الجهات بعيـدة الأطراف تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مُشْتَعِلةٌ بمعانى الهجر والعشق

وتقدَّمنَا نسير فى الغَبَش ، فقال صاحبنا المحب : إنى لأشعر أن الظلام هنا حىٌّ كأن فيه غوامض قلب كبير فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه وبين الجلوس الى فيلسوف عظيم مهمومٍ بهمّ اللانهاية . فتعال نبرز الى ذلك النور حول المسرح لنراها وهى مقبلة فأن رؤيتها سيدةً غير رؤيتها راقصـة ، ولهذه جمالُ فن ولتلك فنٌّ جمال

ولم نلبث إلا يسيرا حتى وافتْ ، ورأيتها تمشى مِشيَة الخفيرات كأنما تحترم أفكارَ الناس ، يزهوها على ذلك إحساسٌ

نبيل كأحساس الملكة الشاعرة بمحبة شعبها . وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا فى طريقها ، وكأن لذة قربها منه هى الممكن الذى لا يمكن غيره .

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء فى الحديقة واضطربت أشجارها فقال : أنت ترى . فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة . قلت : آه يا صديق ! إن المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وجدت فى جو قلب يعشقها

ونفذنا الى المسرح وتحرى صاحبُنا موضعا يكون فيه منظرَ العين من صاحبته ويكون مستخفياً منها . ثم رُفع الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها ، وقد لبسن ثلاثتهن أثواب الريفيات وظهرن كهيئتهن حين يجنين القطن

وبرزت (تلك) فى ثوب من الحرير الأسود وهى بيضاء بياضَ القمر حين يتم ، وقد شدّت وسطها بِشَدةٍ من الحرير الأحمر فتحبّكتْ بها وظهرت شيئين : أعلى وأسفل ، ثم ألقت على شعرها الذهبى قَلنسوةً حمراء من ذلك الحرير أمالتها جانبا فحجبتْ شيئاً منه وأظهرتْ سائره . وأخذت بيديها صفّاقتين [1] وأقبل الثلاث يرقصن ويغنين نشيد الفلاحة

لم أنظر الى غيرها فقد كانت صاحبتاها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل . وما أحسب الحرير الأحمرَ كان معها أحمر ولا الأسودَ كان عليها أسود ، ولا لونَ الذهب فى مِعْصمها كان لونَ الذهب . كلاّ كلاّ هذه ألوان فوق الطبيعة لأن ذلك الوجهَ يُشرق عليها بالجمال والحياة ، وذلك الجسم يَفيضُ لها بالخفة والطرب ، وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة ؛ هذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها

وقال مجنوننا : إن أجمل الجمال فى المرأة الفاتنة هو ذاك الذى يجعل لكل انسان نوعَ شعوره بها ، وأنا أشعر الساعة أن قلبى نصفُ قلب فقط وأن نصفه الآخر فى هذه وحدها ، فما شعورك أنت ؟

قلت ، يا صديق إن الله رحيم ، ومن رحمته أنه أخفى القلبَ وأخفى بواعثه ليظلّ كلُّ انسان محبوباً عن كل انسان ، فدعنى محبوباً عنك

قال : لا بد

قلت : إن المصباح فى الموضع النجس لا يبعث النور نجسا ، وما أشعر إلا أن النور الذى فى قلبى قد امتزج بالنور الذى فى عينيها

ثم كأنها أحست بأن إنساناً قد امتلأ بها فأدارت وجهها وهى ترقص فتلمحت صاحبنا وجعلت تُقطّع الطرفَ بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله ، ثم تبيّنت إلحاحَ نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله

أما هو ، أما المجنون ، أما صاحب القلب المسكين ؟

(لها بقية) لمنفلوطى

(تنبيه) تلقينا كتبا كثيرة يريد أصحابها مثل مقال (السمكة) وسنصطاد لهم إن شاء الله

(١) الصفاقات هى التى يقال لها الساجات تكون فى أصابع الراقصة ، والكلمة واردة فى كتاب الأغانى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ضحى الإسلام

الجزء الثالث

للأستاذ

أحمد أمين

يبحث فى عقائد الفرق الدينية فى العصر العباسى الأول من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج ، كما يبحث فى التاريخ السياسى لكل فرقة وفى أدبها

يقع فى نحو ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه عشرون قرشاً عدا أجرة البريد . وسيظهر يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة